



التراث والتسكالية النضج والاحتراق

بقلم
د. عبد الحكيم الأنيس
إدارة البحوث

**التراث
وإستكالية النضج والاحتراف**

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

إخراج

محى الدين حسين رؤوف

حقوق الطبع محفوظة

لدائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي
إدارة البحوث

هاتف: ٦٠٨٧٧٧٧ ٤ ٩٧١ + فاكس: ٦٠٨٧٥٥٥ ٤ ٩٧١ +

الإمارات العربية المتحدة ص. ب: ٣١٣٥ - دبي

www.iacad.gov.ae mail@iacad.gov.ae



سلسلة: خير جليس (٣)

التراث

وإشكالية النضج والاحتراق

بقلم

د. عبد الحكيم الأنيس

كبير باحثين أول بإدارة البحوث

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرَجُ سَابِحٍ
وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ
المتنبي



الحمد لله رب العالمين، والصَّلَاة والسَّلَام على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فيسر « دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي - إدارة
البحوث - قسم المكتبات الإسلامية » أن تقدّم إصدارها الجديد « التراث
وإشكالية النضج والاحتراق » للدكتور عبد الحكيم الأنيس كبير باحثين أول
بإدارة البحوث، ضمن سلسلة استحدثها القسم بعنوان: «خير جليس».

ويتناول هذا الإصدار مقولة تقول: «إن العلوم ثلاثة: علم نضج وما
احترق، وهو علم الأصول والنحو، وعلم لا نضج ولا احترق، وهو علم
البيان والتفسير، وعلم نضج واحترق، وهو علم الفقه والحديث».

فتبحث عن قائل هذه المقولة، وتاريخ ظهورها زماناً ومكاناً، ومعناها،
وأثرها في حركة التأليف في هذه العلوم الستة المذكورة، إلى غير ذلك من
الأفكار والمطارحات والقضايا.

وهذا الإنجاز العلمي يجعلنا نقدم عظيم الشكر والدعاء لأسرة آل مكتوم حفظها الله تعالى التي تحب العلم وأهله، وتؤازر قضايا الإسلام والعروبة بكل تميز وإقدام، وفي مقدمتها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد بن سعيد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي الذي يشيد مجتمع المعرفة، ويرعى البحث العلمي ويشجع أصحابه وطلابه.

راجين من العلي القدير أن ينفع بهذا العمل، وأن يرزقنا التوفيق والسداد، وأن يوفق إلى مزيد من العطاء على درب التميز المنشود.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصَلَّى اللهُ عَلَى النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْخَاتَمِ سيدنا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

الدكتور سيف بن راشد الجابري

مدير إدارة البحوث



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومنْ والاه.

وبعدُ:

فهل انتهت وظيفة التراث؟

هذا سؤال قد نسمعه أو نواجهه به في هذا العصر، ترى هل له من خلفية تاريخية؟

الواقع أن هناك مقولة قد تُحمَل هذا المعنى، وهي لا تحتمله، لذلك لا بُدَّ

من إيرادها ودراستها، هذه المقولة هي:

« العلوم ثلاثة:

١- علم نضج وما احترق، وهو علم الأصول والنحو.

٢- وعلم لا نضج ولا احترق، وهو علم البيان والتفسير.

٣- وعلم نضج واحترق، وهو علم الفقه والحديث.»

فَمَنْ قائلُ هذه المقولة ، ومتى قالها ، ومتى ظهرت ، وأين ، وَمَنْ أوردَها ، وما معناها ، وما أثرها ، وهل هي مسؤولةٌ عن القول بأنَّ التراث استنفد أغراضه ؟

هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة والأفكار والمطارات ما يطوفُ حوله البحثُ ، مع طرح قضايا تراثية علمية لم يُفرغ منها حتى اليوم ، هي أولى من كثيرٍ من الخلافات الجانبية والمعارك المفتعلة التي تأخذنا من أنفسنا ، وتأخذ منا أوقاتنا ، وتهدر طاقاتنا ، وتصرفنا عن تراثنا ، تراث الهوية والفكر ، تراث المنطلق والحاضر والمستقبل .

وسيكون البحث في خمسة مطالب ، وهي :

المطلب الأول: قائل هذه المقولة وأول مَنْ ذكرها والناقلون عنه .

المطلب الثاني: سبب إيراد هؤلاء العلماء لها .

المطلب الثالث: معناها وتعليلها ومناقشتها .

المطلب الرابع: مدى انطباقها على الواقع وأثرها .

المطلب الخامس: خلاصة وتعليق .

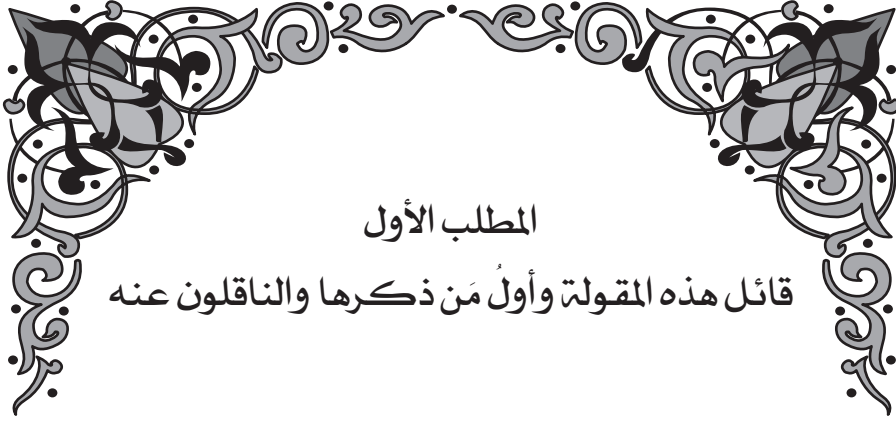
النتائج

التوصيات (١) .

(١) شارك الباحث بهذا البحث في مؤتمر «مستقبل التراث: نحو خطة شاملة للتراث

الفكري العربي» الذي عقده معهد المخطوطات العربية في المنظمة العربية للتربية

والثقافة والعلوم في القاهرة ١-٢ ديسمبر ٢٠١٠ م .



المطلب الأول

قائل هذه المقولة وأول من ذكرها والناقلون عنه

لم أجد في شيء من المصادر تعيينَ اسم قائل هذه المقولة، وعلى هذا لا نستطيع تحديد تاريخها على سبيل القطع، ولكن قد يُؤخذ من تاريخ أول من ذكرها معرفة وقت ظهورها، فمن أول من ذكرها، ومن ذكرها من بعده؟

١- إن أول من ذكر هذه المقولة بدر الدين الزركشي، وهو من أهل القرن الثامن الهجري، ولد في القاهرة سنة (٧٤٥هـ)، وتوفي فيها سنة (٧٩٤هـ).

ذكرها في مقدمة كتابه «المنثور في القواعد» ولفظه: «فائدة: كان بعض المشايخ يقول»^(١). ولم يُصرِّح باسم هذا الشيخ القائل، ولا صرَّح به أحد من بعده.

٢- ونقلها عنه بلديّه السيوطي (٨٤٩-٩١١) في كتابيه:

«شرح الأرجوزة المسماة: عقود الجمان في علم المعاني والبيان»^(٢)، و«الأسباه والنظائر في النحو»^(٣).

(١) انظر: المنثور (٧٢/١).

(٢) انظر: ص ١.

(٣) انظر: (٨/١).

٣- وذكرها بعدهما زين الدين بن إبراهيم المعروف بابن نُجيم الحنفي، المصري كذلك (٩٢٦-٩٧٠) في كتابه «الأشباه والنظائر»^(١) ولم يذكر مصدره، ولكنني أرجح أنه نقلها عن الزركشي، لكون كتابه هذا في نفس اتجاه كتاب الزركشي، ولاتحاد لفظيهما.

٤- ونقلها عن ابن نُجيم محمد علاء الدين بن علي الحصكفي الدمشقي (١٠٢٥-١٠٨٨) في مقدمة كتابه «الدر المختار شرح تنوير الأبصار»^(٢) وهو من المراجع في المذهب الحنفي.

٥- ثم ذكرها طاهر الجزائري (١٢٦٨-١٣٣٨هـ) في آخر كتابه «توجيه النظر إلى أصول الأثر»^(٣) ولم يذكر مصدره.

فهذه المقولة مصرية المنشأ، وهي تعود - حسب الظاهر - إلى شيخ من أهل القرن الثامن، ولعله من شيوخ الزركشي، وكان ظهورها في النصف الثاني من هذا القرن، ثم خرجت إلى الشام في القرن الحادي عشر، ولم تتعد هذين القطرين.



(١) انظر: (٤/١٢٩-١٣٠).

(٢) انظر الدر المختار - مع حاشية ابن عابدين - (١/١٦٢-١٦٣).

(٣) انظر: (٢/٩٠٣).



المطلب الثاني سبب إيراد هؤلاء العلماء لها

لماذا أوردتها هؤلاء العلماء؟

للإجابة على هذا السؤال لأبْدُ من تتبع سياقات إيراد هذه المقولة:

- من الواضح أن الزركشي أوردتها ليقول بأن علم أصول الفقه نضج وما احترق، فهو بحاجة إلى مزيد بحثٍ وخدمةٍ، وأنه بكتابه هذا « المنشور في القواعد » يسهم بهذا الجانب، ويأتي بالجديد، وبذلك يؤيد قوله في مفتحه: «هذه قواعد تضبط للفقهاء أصول المذهب، وتطلعهم من مآخذ الفقه على نهاية المطلب، وتنظم عقده المنشور في سلك، وتستخرج له ما لم يدخل تحت ملك. أصلتها لتكون ذخيرة عند الاتفاق، وفرّعت عليها من الفروع ما يليق بتأصيلها على الخلاف والوفاق، وغالبها - بحمد الله - مما لا عهد للأنام بمثلها، ولا ركضت جياذ القرائح في جواد سبلها»^(١).

وأكد مدّعه هذا بنقل قول أبي بكر ابن العربي: « لا ينبغي لحصيف يتصدى إلى تصنيف أن يعدل عن غرضين:

(١) المنشور (١/٦٦).

- إمّا أن يخترع معنى.

- وإمّا أن يبتدع وضعاً ومبنى.

وما سوى هذين الوجهين فهو تسويد الورق، والتحلي بحلية السَّرَق^(١).

- أمّا السيوطي فقد أوردها في مقدمة كتابه «شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان» ليقول إنه يؤلّف في علمٍ لا نضج ولا احترق، وهو كذلك يمهد لما سيورده فيه من أنواع بديعية يقول إنه اخترعها هو^(٢).

وقد فرغ من كتابه هذا سنة (٨٧٥هـ) وله من العمر ست وعشرون سنة، وهو في ذروة الشباب، وفورة الطموح، والتوهج العلمي.

وأما إيراده لها في صدر كتابه «الأشباه والنظائر في النحو» مع أن علم النحو نضج فكأنه يقول إنه قادرٌ أن يزيد في النحو - على نضجه - زيادة ذات بال، أو يسهم في احتراقه، وقد صرّح في مقدمته أنه لم يسبق إلى مثله، وأنه قصد أن يسلك بالعربية سبيلَ الفقه فيما صنّفه المتأخرون فيه وألّفوه من كتب الأشباه والنظائر^(٣).

(١) المثنور (٧٢/١).

(٢) انظر: شرح عقود الجمان ص: ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥ وقد ذكر هنا: التأسيس والتفريع، ونفي الموضوع، والتصحيح «وهو أن يأتي في المقصود بكلامٍ لتصحيحه معنى معتبر، فيقصد ذلك لتذهب نفس السامع إلى كلٍّ من معنييه».

(٣) الأشباه والنظائر (٦/١).

- ونأتي إلى ابن نجيم، وقد أورد هذه المقولة في أثناء الفن السابع من فنون كتابه «الأشباه والنظائر» المعقود لـ (الجمع والفرق) أي معرفة ما يجتمع مع آخر في حكم فأكثر، ويفترق عنه في حكم آخر^(١).

ولعل مناسبة ذكر هذه المقولة فيه هي ما يجمع بين هذه العلوم وما يفرق بينها من أمر النضج والاحتراق، ولكنها ليست قولاً فقهياً.

وقد صرّح في مقدمة كتابه وخاتمته كذلك أنه لم يطلع له على نظير في كتب أهل مذهبه (الحنفي)^(٢)، فلعله يريد أن يقول إنه يسهم في احتراق علم الأصول الذي لم يحترق^(٣). وهذا هو الراجح.

- أمّا الحصكفي فقد أوردتها في مقدمة يتكلم فيها على الفقه في معرض إطرئه وتفضيله، وكان قد قال في الثناء على كتابه: «مَنْ أتقن كتابي هذا فهو الفقيه الماهر، ومن ظفر بها فيه فسيقول بملء فيه: كم ترك الأول للآخر...»^(٤).

(١) انظر: غمز عيون البصائر (١/٣٨).

(٢) انظر: الأشباه والنظائر - ضمن الشرح - (١/٣١) و(٤/٣٢٢). وأيد شارح كتابه الحموي دعواه، ثم ذكر ما ينتقد. انظر: الغمز (١/٥-٦).

(٣) هل يُعدُّ كتاب «الأشباه والنظائر» من كتب الفقه أو الأصول؟ إن الزركشي وصف القواعد في كتابه المنشور (١/٧١) أنها هي أصول الفقه على الحقيقة. وكذلك قال ابن نجيم عنها، ونازعه شارح كتابه الحموي في «غمز عيون البصائر» (١/٣٤)، ولا سيما أن كتابه يجمع القواعد وغيرها. ولعل الأدق أن هذا الكتاب يجمع الأصول والفقه، أو هو جسر بينهما. وهذا يدل على أن العلماء لم يتوقفوا عند حرفية هذه المقولة.

(٤) الدر المختار مع حاشية ابن عابدين (١/٩٥-٩٦).

ومن الواضح أنه لا يرى تعارضاً بين نضج هذا العلم واحتراقه، والتأليف والإبداع فيه.

- وآخر مَنْ أوردها طاهر الجزائري، وقد أوردتها بعد أن نقل كلاماً لابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) ردّ فيه على أبي شامة المقدسي (ت: ٦٦٥هـ) الذي ارتأى أن حفظ أسانيد الأحاديث، ومعرفة رجالها، وتمييز صحيحها من سقيمها كان مهماً، وقد كُفِيَهُ المشتغل بالعلم بما صُنِّفَ فيه وألَّفَ من الكتب، ولا فائدة في تحصيل ما هو حاصل.

وابنُ حجر لا يرى ما رآه أبو شامة، من أن التصنيف في الفن يوجب الاتكال عليه، وعدم الاشتغال به.

وهنا تساءل الجزائري عن إمكان الجمع بين قول ابن حجر وقول مَنْ قال: (العلوم ثلاثة...) باعتبار أن علم الحديث نضج واحترق، وأجاب بإمكان الجمع، وذهب إلى أن علم الحديث لم يحترق، والأولى إخراجه من هذا القسم^(١).

وكان هذا يعني أن الجزائري يورد هذه المقولة ليستند إليها - من طرف خفي - في عمله، ويقول إنه يؤلّف في علمٍ لم يحترق، على أن له رأياً في الاحتراق سيأتي.

(١) انظر التفصيل في «توجيه النظر» (٢/٩٠٢-٩٠٣).



المطلب الثالث

معناها وتعليقها ومناقشتها

أول مَنْ تكلّم على معناها فاضلاً، نَقَلَ كلامه أحمد بن محمد الحموي الحنفي المصري (ت: ١٠٩٨ هـ) في كتابه «غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر» لابن نجيم، ولم يُصرِّح باسمه^(١)، ثم تكلّم عليها خليل بن

(١) كان الحموي قد ذكر في مقدمة شرحه (٦/١) أن الله أتاح له حواشي لبعض الفضلاء، مكتوبة في الهوامش، وقد أثنى عليها وأفاد منها. وبالرجوع إلى «كشف الظنون» (٩٩/١) نجده ذكر خمس تعليقات على الأشباه والنظائر لخمسة علماء أتراك وقال: «وهذه لا توجد إلا في هوامش نسخ الأشباه» فيكون مقصود الحموي واحداً منهم أو أكثر. وهؤلاء هم:

- ١- المولى محمد بن محمد المشهور بنجوى زاده (ت: ٩٩٥ هـ).
 - ٢- المولى علي بن أمر الله الشهير بقنالي زاده (ت: ٩٩٧ هـ).
 - ٣- المولى عبد الحلیم بن محمد الشهير بأخي زاده (ت: ١٠١٣ هـ).
 - ٤- المولى مصطفى الشهير بأبي الميامن (ت: ١٠١٥ هـ).
 - ٥- المولى مصطفى بن محمد الشهير بعزمي زاده (ت: ١٠٣٧ هـ).
- وإبهام الأسماء والمصادر مشكلة كبيرة يعانيتها التراث العربي، ولا أجد لها مسوغاً مقنعاً مقبولاً - وقد قرأت قول السيوطي في «الفارق».

محمد الفتال الدمشقي (ت: ١١٨٦هـ)^(١)، وإبراهيم الحلبي (ت: ١١٩٠هـ)، والطحطاوي (ت: ١٢٣١هـ)، وابن عابدين (ت: ١٢٥٢هـ) في حواشيهم على «الدر المختار» للحصكفي^(٢)، ثم طاهر الجزائري (ت: ١٣٣٨هـ)، ثم أبو غدة (ت: ١٤١٧هـ).

وقد أقرَّ الفاضلُ المجهولُ هذه المقولة، وعلَّل نضج علم الأصول والنحو وعدم احتراقهما بقوله: «لأنهما وإن دُوِّنت قواعدهما وحُرِّرت، لكن لم أقف على ما استنبط منهما من الفروع على غاية، بل اختلفت أئمتها فيها، ويظهر ذلك لمن تأمَّل في كتب الأصول والأعاريب»^(٣).

ويبدو من هذا أن النضج في علمه هو تدوين القواعد وتحريرها، وأن الاحتراق هو الوصول إلى غاية متفق عليها.

وقال الحلبي: «المراد بنضج العلم تقرُّر قواعده، وتفريع فروعها، وتوضيح مسأله، والمراد باحتراقه بلوغه النهاية في ذلك، ولاشك أن النحو والأصول لم يبلغا النهاية في ذلك»^(٤).

(١) انظر: دلائل الأسرار (الورقة ١١).

(٢) طبعت حاشيتا الطحطاوي وابن عابدين، أما حاشية الحلبي «تحفة الأخيار» فما تزال مخطوطة، وقد ألفها في القاهرة كما في سلك الدرر (١/٣٨). ورجعت إلى «التحرير المختار لرد المحتار» للرافعي فما وجدته عرض لهذه المقولة.

(٣) غمز عيون البصائر (٤/١٢٩). ونقل كلامه الفتال الدمشقي عن الحموي.

(٤) نقله ابن عابدين في حاشيته (١/١٦٢).

أي لم يحترقا بعد، وهذا يعني إبقاء الباب مفتوحاً للتأليف فيهما، ولم يشترط الحلبي في الاحتراق الاتفاق كما هو ظاهرٌ من عبارته.

وعبر الطحطاوي عن هذا بقوله:

«نضج: أي تقررت قواعده، وفُرِّعت عليها الجزئيات، ودُفعت اعتراضاته، وفُصِّلت أقاويله، ووُضِّحت معضلاته. أفاده الحلبي بإيضاح.

وما احترق: أي ما بلغ الغاية والنهاية، بل ما زالت فيه فروع وأبحاث، وأشياء لم يقفوا على حقيقتها من كلام العرب»^(١)، أي سبقي مجال نظر واجتهاد وتتبع.

وقال عن علم الأصول: «أي علم العقائد، وأما أصول الفقه فداخلة فيه، ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم»^(٢).

وخالفه ابن عابدين فقال: «الظاهر أن المراد بالأصول أصول الفقه، لأن أصول العقائد في غاية التحرير والتنقيح»^(٣) والحق معه، وتشهد له أقوال مَنْ سبق.

وللجزائري رأي آخر فهو يرى أن علم النحو قد احترق، إذ يقول:

«يُراد بنضج العلم: كونه قد بُيِّنَ بياناً كافياً، بحيث لا يحتاج طالبه إلى فرط عناء في تحصيل مطلبه.

(١) حاشية الطحطاوي (١/٣٣).

(٢) حاشية الطحطاوي (١/٣٣).

(٣) حاشية ابن عابدين (١/١٦٢).

وباحترافه: كونه قد استقصي البحث فيه، ثم تُجَوِّز به الحدُّ فأفضى ذلك إلى ذكر كثيرٍ مما لا تمسُّ إليه الحاجة، إما لكونه مما يُفرض فرضاً، أو لنحو ذلك، حتى يصير الطالب - لكثرة المباحث مع عدم معرفته ما يلزم منها مما لا يلزم - حائراً في أمره.

وهذا المعنى لا يظهر بتمامه في علم الحديث، وإنما يظهر في نحو «النحو»، فإن فيه كثيراً مما لا تمسُّ الحاجة إليه، لا سيما الحجج التي لا يدل عليها نقل ولا عقل، والأولى إخراج علم الحديث من هذا القسم^(١)، أي وإدخال علم النحو فيه.

ويتفق الفاضل المجهول والطحطاوي في النوع الثاني بأنه ما نضج ولا احترق:

يقول الأول: «أما علم البيان فلأنه يرجع إلى الذوق فلا غاية له، لا اختلاف الناس فيه.

وأما علم التفسير فلأنه لا غاية له يوقف عليها، ومن أمعن النظر فيه ظهر له ذلك، إذ موضوعه فهمُّ مُراد الله تعالى من حيث المعاني، ووجوه الإعجاز، وموقع المناسبات، وغير ذلك، مما لا يحيط به إلا علام الغيوب، فكيف يوقف له على غاية؟ بل إنما يعطى الشخص من ذلك بحسب الإلهام الإلهي، وهو لا يقف عند غاية بحيث لا يتعدى إلى غيرها، ومن وقف على كتب التفسير وتأملها ظهر له ذلك»^(٢).

(١) توجيه النظر (٢/٩٠٣).

(٢) غمز عيون البصائر (٤/١٣٠).

ويقول الطحطاوي:

« قوله لا نضج: أي لم تُقرر كل قواعده، ولم يوقف لها على آخر، وإنما تُكلم فيها بحسب ما ألهم، وفوق ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى^(١)، ولم يتكلموا على كثير من جزئياته.

قوله: وهو علم البيان: المراد به ما يعمُّ العلوم الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، ولذلك قال الزمخشري: «إن منزلة علم البيان من العلوم مثل منزلة السماء من الأرض» ولم يقفوا على ما في القرآن جميعه من بلاغته وفصاحته ونكته وبديعته، بل على النزر اليسير، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ وإنما ذلك لما فيه من البلاغة .

قوله: والتفسير: أي تفسير القرآن، فقد ذكر السيوطي في «الإتقان» أن القرآن في اللوح المحفوظ، كل حرف منه بمنزلة جبل قاف، وكل آية تحتها من التفاسير ما لا يعلمه إلا الله تعالى^(٢).

وكذلك يتفق الفاضل المجهول والطحطاوي في النوع الثالث وهو (علم نضج واحترق، وهو علم الفقه والحديث) ويخالف الجزائري في علم الحديث، ولا يتعرض لعلم الفقه.

(١) كذا العبارة!.

(٢) حاشية الطحطاوي (١/ ٣٣-٣٤) وما نقله عن السيوطي يحتاج إلى إسناد وثيق.

يقول الفاضل معللاً النضج والاحتراق في العلمين المذكورين: « فإنهما بلغا نهاية المقصود منهما، وهو بيان الحلال والحرام، مع ما يعتبر لهما شرعاً من الكتاب والسنة »^(١).

ويقول الطحطاوي:

« قوله: وعلم نضج: أي قُررت قواعده، وبُيئت غالب جزئياته حتى لم يبق منه إلا القدر اليسير مما لا يحتاج إليه عامة الخلق.

قوله: واحترق: أي بلغ الغاية بحيث لا يحتاج إلى مزيد، بل لو أتى بزيادة الآن لا تقبل، لأن المجتهدين رحمهم الله أمعنوا النظر في الكتاب والسنة، وخرجوا الأحكام، وأيدوا قواعدها، وهذا تفسير مراده، وإلا فالاحتراق مفسدٌ للأشياء.

قوله: علم الحديث: وذلك لأنه قد تمَّ المراد منه، وذلك لأن المحدثين - جزاهم الله خيراً - وضعوا كتباً في أسماء الرجال، ونسبهم، والفرق بين أسمائهم، وبينوا سيئ الحفظ منهم، وفاسد الرواية من صحيحها، ومنهم مَنْ حفظ المئة ألف، والثلاث مئة، وحصر ما روى عن النبي ﷺ من الصحابة^(٢)،

(١) غمز عيون البصائر (٤/ ١٣٠) وقد ذكر آيتين وحديثاً تدل على الإبلاغ والتبيين.

(٢) ألم بكلامه هذا على علم الحديث الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في كتابه « لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث » ص ١٣٦-١٣٧، فقال في كلامه على المحدثين وأعمالهم: « وخدموا السنة الشريفة خدمة لم يخدم بها علم من العلوم، حتى قيل: العلوم ثلاثة... والمراد بالنضج والاحتراق هنا: أن المحدثين - جزاهم الله =

وبينوا الأحكام، والمراد منها، بحسب ما يراه كل مجتهد على قدر ما ألهمه الله تعالى، فانكشفت حقيقته، وظهر لمتعاطيه، بحيث لا يخطر بوجوهه^(١) أمر في الحديث يؤلف إلا وقد يوجد مؤلف^(٢) على المراد وزيادة.

قوله: والفقهاء: المراد ما يعم كتب فروع وأصوله^(٣)، وهذا مما هو معلوم، فترى حوادث الخلائق على اختلاف مواقعها وتشتاتها مرقومة بينها، أو ما يدل عليها، بل قد تكلم الفقهاء على أمورٍ قد لا تقع أصلاً، نصوا عليها خشية وقوعها، أو تقع نادراً، وأما ما لم يكن منصوصاً فنادر يسير، وقد يكون

= كل خير - وضعوا كتباً في تراجم الرجال - الثقات والضعفاء والمجروحين -، وفي ضبط أسمائهم وأنسابهم وبلدانهم، وما افترق منها وما اتفق...، وحصر ما من روى عن النبي ﷺ من الصحابة الكرام، وبينوا الراوي الثقة العدل من سيئ الحفظ والمجروح، وفسد الرواية من صحيحها، وحصر رواية كل راوٍ، وأحصوا شيوخه والآخذين عنه، والبلدان التي دخلها، والأحاديث التي رواها، واستوفوا كل شاردة وواردة في شأن نقلة الحديث حتى أربوا على الغاية. ومن هذا قالوا في علم الحديث: إنه علم نضج واحترق».

وكلام الشيخ أبو غدة محمولٌ على علوم الإسناد، أما التطبيق في التصحيح والتضعيف فلم يُفرغ منه إلى اليوم، وكذلك القول في موضوعات السنة الكثيرة التي تشمل الحياة والتي تمثل منهج سلوك متكامل، ومن الممكن أن نذكر مثلاً قريباً هو كتاب الأستاذ أبو غدة: «الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم» الذي لم يؤلف السابقون مثله، وقد جمع فيه أربعين أسلوباً نبوياً في ذلك.

(١) أي بنفسه.

(٢) في الأصل: مؤلفاً.

(٣) قال: وأصوله. لأنه حمل الأصول في النوع الأول على العقائد.

منصوصاً غير أن الناظر يقصر عن البحث عن محله، أو عن فهم ما يفيد، مما هو منصوص بمفهوم أو منطوق»^(١).

وقد نقل ابنُ عابدين هذا وتدخّل فقال عن الفقه: «أو يقال: المراد بالفقه ما يشمل مذهبنا وغيره، فإنه بهذا المعنى لا يقبل الزيادة أصلاً، فإنه لا يجوز إحداث قول خارج عن المذاهب الأربعة»^(٢). وهذا موجود في كلام الطحطاوي كما سبق!

وخلاصةُ هذا ما يأتي:

يَرى الفاضلُ المجهولُ أن النضج في العلم هو تدوين قواعده وتحريرها، وأن الاحتراق هو الوصول إلى غاية متفق عليها.

ويرى الحلبيُّ أن النضج هو تقرير القواعد، وتفريع الفروع، وتوضيح المسائل، وأن الاحتراق بلوغ النهاية في ذلك.

ويوافقهُ الطحطاوي والجزائري، ويزيد الجزائري عليها أنه يلتفت في فهمه للعبارة إلى جهة المتلقي، فالناضج ما لا يحتاج الطالبُ فيه إلى عناء في تحصيله، والمحترق ما يختار أمام كثرة مباحثه التي لا تمس الحاجة إليها^(٣).

(١) حاشية الطحطاوي (١/٣٤).

(٢) حاشية ابن عابدين (١/١٦٣).

(٣) انظر: توجيه النظر (٢/٩٠٣).

وهذا الفهم نابع من طبيعته التي كان عليها هو، في ميله إلى تقريب العلوم وتسهيلها^(١).

ويلتفت كذلك إلى الاستدراك على المقولة في أمر الاحتراق فيقول: « وَمَنْ أَمَعِنَ النَّظْرَ فِي هَذَا الْأَمْرِ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ فِرْطَ النَّضْجِ فِي عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ لَا يَفْضِي إِلَى احْتِرَاقِهِ، وَإِنَّمَا يَفْضِي فِي الْغَالِبِ إِلَى إِفْرَادِ بَعْضِ مَبَاحِثِهِ بِالْبَحْثِ، فَإِذَا اتَّسَعَ الْأَمْرُ فِي مَبْحَثٍ مِنْهَا صَارَ فَنًّا مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ وَإِنْ كَانَ مُتَفَرِّعًا عَنْ غَيْرِهِ. وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ الْفَنُّ الْمُنْفَرِّعُ مِنْ غَيْرِهِ وَاسِعَ الْأَطْرَافِ جَدًّا، قَالَ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ: عِلْمُ الْحَدِيثِ يَشْتَمِلُ عَلَى أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ، كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا عِلْمٌ مُسْتَقِلٌّ، لَوْ أَنْفَقَ الطَّالِبُ فِيهِ عَمْرَهُ لَمَا أَدْرَكَ نَهَايَتَهُ.

ولما كان الاستقصاء في العلوم غير ممكن، حث العلماء طلابها على الاقتصار فيها أو الاقتصاد...»^(٢).

ومع أن الاحتراق مصطلح لم يُرَدِّدْ به الغض والنيل في هذا التقسيم، إلا أن الجزائري بلفتته هذه يحاصرُه ويضيِّقُ دائرته. وحسنًا فعل، إذ الاحتراق مفيدٌ للأشياء كما قال الطحطاوي، فلا بُدَّ من تأويله أو تضييقه.

(١) انظر: ترجمته في صدر «توجيه النظر» (١/٢٣-٢٤)، وكتاب «الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث» ص: ٦١-٦٣.

(٢) توجيه النظر (٢/٩٠٤).





المطلب الرابع

مدى انطباقها على الواقع وأثرها

بينتُ فيما مضى أن هذه المقولة ظهرت في القرن الثامن، ولا نعرف شيئاً عن قائلها لنستدل به على موقعه في العلم والاطلاع، ومكانته التي تؤهله لإطلاق هذا الحكم في ستة علوم واسعة كبيرة، ولا نعلم شيئاً عن الطرف الذي قيلت فيه.

ولكن العلماء الذين ذكروها أو شرحوها تلقوها بالقبول إلا في جزء منها نازع فيه الشيخ طاهر الجزائري في القرن الرابع عشر.

وهي على أية حال تمثل رأي قائلها، ورأي العلماء الذين ذكروها أو شرحوها، وأنا أميل إلى رأي الشيخ الجزائري فيها فقد عدّها من قبيل الملح التي تُستحسن في المحاضرة، ولا يستقصى البحث فيها^(١).

وفي نفس الوقت أتساءل عن سرّ بقاء هذه المقولة تتردد لدى العلماء - كما هي - سبعة قرون؟! فالعلم الذي نضج وما احترق: ألم يحترق خلال هذه القرون؟ والعلم الذي ما نضج ولا احترق: ألم ينضج، إن لم نقل:

(١) توجيه النظر (٢/٩٠٣).

ألم يحترق؟ والعلم الذي نضج واحترق: لماذا لم يتوقف الاشتغال والتأليف فيه إذن؟.

إن هذه التساؤلات تدفعنا إلى القناعة بأن هذه المقولة مُلحّة، لم يقصد منها الحكم القطعي الكلي، ولهذا تعددت زوايا النظر في تعليلها وتوجيهها.

والواقع أن التاريخ لأي علم والحكم عليه من الصعوبة والخطورة بمكان، ويحتاج إلى تتبع كامل واستقراء تام لعلمائه وكتبه وأطواره كلها زماناً ومكاناً^(١).

وعلى كل يبدو لنا مما سبق أن أثر هذه المقولة كان إيجابياً لدى السابقين، كالزركشي، والسيوطي، وابن نُجيم، ولا سيما فيما صنّفته من العلوم أنه لم يحترق، أو لم ينضج ولم يحترق.

وبقي أثرها كذلك إلى يومنا هنا^(٢).

أما ما حكمت عليه بالنضج والاحتراق وهو علم الفقه والحديث، فربما

(١) ويجب الحذر في التعامل مع إطلاق هذه الأحكام وأمثالها، ومن ذلك قول الإمام أحمد بن حنبل: «ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازي والملاحم والتفسير»، فقد بين الخطيب البغدادي أن «هذا الكلام محمول على وجه، وهو أن المراد به كتب مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة، غير معتمد عليها ولا موثوق بصحتها، لسوء أحوال مصنفها، وعدم عدالة ناقلها، وزيادات القصاص فيها» إلخ كلامه فانظره فإنه مهم جداً. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٣١-٢٤٢).

(٢) انظر: «الحاجة إلى علم أصول التفسير» للدكتور مولاي عمر بن حماد.

كان لذلك أثر غير جيد في انصراف بعض العلماء عن التأليف فيها^(١)، وإن كان الواقع لدى الجمهور الأعظم يقول غير ذلك، فالعلماء دأبوا على الاشتغال والتأليف فيهما، وظهرت لهم مؤلفات حظيت بمنزلة عالية، وقبول عريض، منهم العلماء الأربعة: الحصكفي والحلي والطحطاوي وابن عابدين الذين قبلوا هذه المقولة في نضج الفقه واحترافه، فإنهم أوردوها في مؤلفات فقهية، وهذا يعني أنهم لم يفهموا منها سد الطريق على مَنْ يريد التأليف، ولا سيما أن أغراض التأليف وأهدافه وأنواعه متعددة متنوعة.

وقد أثنى ابنُ عابدين على كتب المتأخرين فقال: «وأنت ترى كتب المتأخرين تفوق على كتب المتقدمين في الضبط والاختصار وجزالة الألفاظ، وجمع المسائل، لأنَّ المتقدمين كان مصرف أذهانهم إلى استنباط المسائل وتقويم الدلائل، والعالم المتأخر يصرف ذهنه إلى تنقيح ما قالوه، وتبيين ما أجملوه، وتقييم ما أطلقوه، وجمع ما فرقوه، واختصار عباراتهم، وبيان ما استقر عليه

(١) جاء عن الإمام محمد البايلي المصري (ت: ١٠٧٧ هـ) في ترجمته في «خلاصة الأثر» (٤/ ٤١) أنه: «كان ينهى عن التأليف، ويقول: التأليف في هذه الأزمان من ضياعة الوقت، فإن الإنسان إذا فهم كلام المتقدمين الآن، واشتغل بتفهيمة فذاك من أجل النعم، وأبقى لذكر العلم ونشره، والتأليف في سائر الفنون مفروغ منه».

وهذا أعم مما نحن فيه، وهو موقف شخصي ولم يتابع عليه، وقد تواردت كلمات العلماء في الحض على التأليف لمن تأهل له. انظر افتتاحية مجلة الأهمية، العدد (٦). والبايلي نفسه ألف كتاباً معجباً - وإن كان مضطراً -، قال المحيي كذلك: «وأجاء الوزير الأعظم أحمد باشا إلى تأليف كتاب في الجهاد وفضائله، فألف فيه في أيام قليلة كتاباً حافلاً أتى فيه بالعجب من الآثار الواردة فيه، وأحكامه المختصة به».

الأمر من اختلافاتهم، فهو كما شطّة عروسٍ رباها أهلها حتى صلحت للزواج،
تزينها وتعرضها للأزواج، وعلى كل فالفضل للأوائل، كما قال القائل:

كالبحر يسقيه السحابُ وماله فضلٌ عليه لأنه من مائه»^(١).

ومن أثر هذه المقولة الإيجابي ما فهمه الشيخ طاهر الجزائري «أن فيها
إشارة إلى أمر ينبغي الانتباه إليه، وهو أن ما نضج واحترق من العلوم ينبغي
السعي في تنقيحه، ليسهل على الطالب تناوله والانتفاع به، وما لم ينضج منها
ينبغي السعي في إكمال مباحثه، لينضج أو يقرب من النضج»^(٢).



(١) حاشية ابن عابدين (١/٩٧).

(٢) توجيه النظر (٢/٩٠٣-٩٠٤).



المطلب الخامس خلاصة وتعليق

نخلصُ ممَّا تقدم إلى أن هذه المقولة ملحّةٌ من ملح العلماء^(١)، تُذكر على

(١) وقد علق الفقيه خير الدين الرملي (ت: ١٠٨١ هـ) على المقولة بملحة أخرى فقال في كتابه «نزهة النواظر على الأشباه والنظائر» لابن نجيم (٤/٤٦٧).

«قال ابن البلوي في كتاب ألف با:

قال الخليل بن أحمد:

العلوم أربعة:

فعلم له أصل وفرع.

وعلم له أصل ولا فرع له.

وعلم له فرع ولا أصل له

وعلم لا أصل له ولا فرع له.

فأما الذي له أصل وفرع فالحساب ليس بين أحد من الخلق فيه اختلاف.

وأما الذي له أصل ولا فرع له فالنجوم ليس لها حقيقة يبلغ تأثيرها في العالم - يعني الأحكام والقضايا على الحقيقة - .

وأما الذي له فرع ولا أصل له فالطب، أهله منه على التجارب إلى يوم القيامة.

وأما الذي لا أصل له ولا فرع له فالجدل.»

والقول في «إنباه الرواة» (١/٣٨١-٣٨٢) وزاد: «قال أبو بكر الصولي: يعني الجدل بالباطل»

سبيل الإجمال لا التفصيل، وقد يُراد منها التنبيه على ما قُعد من العلوم وما لم يُقَّعد، ومبلغ ذلك، ولا تعني بحال من الأحوال استنفاد الأغراض، وإغلاق الباب، وعدم تطبيق تلك القواعد .

ورأينا أن أثرها كان إيجابياً ولم يكن سلبياً، وعمل العلماء من القرن التاسع إلى الآن خير دليل على ذلك، وإذا ألقينا نظرة فاحصة على تراجمهم في هذه القرون لرأينا عدداً كبيراً جداً من المؤلفات في مختلف أنواع العلوم والآداب، وقد أضافت هذه المؤلفات إضافات كبيرة على هذه العلوم والآداب، وكان القرن التاسع الذي ظهرت هذه المقولة قبله متميزاً على ما سواه من القرون - بعد الثالث والثاني -^(١).

وفي هذا القرن ظهر (فتح الباري بشرح البخاري) و(عمدة القاري) الذين يُعدّان وفاءً لدين الأمة الذي طالب به ابنُ خلدون بنقله عن كثير من المشايخ قولهم: (شرح البخاري دينٌ على الأمة)^(٢).

(١) انظر دراسة الباحث عبد الرحمن بن حمد العكرش: «من غرائب التأليف وفرائده في التراث العربي» المنشورة في مجلة عالم الكتب، المجلد (٢٢)، في العدد (٣-٤)، فقد أعد ثبناً بـ (١٧٦٧) كتاباً رأى أنها تفردت في الموضوعات التي طرقتها، أو في طريقة عرضها، أو في الظروف التي ظهرت فيها، ووزعها على القرون وعلى الموضوعات، وعمل لها جداول ونسباً، وكان من نتائجه تميز القرن التاسع، ويأتي في الدرجة الثالثة بعد (القرن الثالث) و(الثاني)، وهي دراسة طريفة، وإن لم تخل من ملحوظاتٍ أهمها عدم الاستقراء الكامل، فانظرها وانظر جدول التوزيع الزمني المشار إليه ص ٢٠٦ .

(٢) انظر: كشف الظنون (١/ ٦٤٠-٦٤١)، ومن الملح كذلك أن الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ) حين طلب منه شرح البخاري قال: لا هجرة بعد الفتح. كما في «فهرس =

وفي هذا القرن كان السيوطي الذي أضاف إلى المكتبة الإسلامية - ومنها المكتبة الحديثية والفقهية - إضافات كبيرة متميزة^(١).

- = الفهارس» (١/٣٢٣)، ولا ينبغي أن نفهم أن شرح ابن حجر غاية الإمكان، ولا يستطيع أحد أن يأتي بمثله أو بما هو أفضل، وهو قول أقرب إلى الاعتراف الشخصي منه إلى الحكم العام. أو هو إعجاب وتقدير وثناء، وهضم للنفس أمام السابقين.
- (١) وقد تتبعتُ مؤلفات العلماء الذين ذكروا هذه المقولة أو شرحوها - ولا سيما في علم الحديث والفقه - فرأيتُ لهم مؤلفات كثيرة في ذلك:
- فللزركشي (٤٥) كتاباً، منها: (٢٢) كتاباً في الفقه وأصوله، و(٩) كتب في الحديث كما في مقدمة «البرهان في علوم القرآن» (١/١٧).
- وللسيوطي (٥٤٠) كتاب على ما في «فهرست مؤلفاته»، منها: (٢٢٨) كتاب في الحديث وعلومه، و(٧٢) كتاباً في الفقه.
- ولابن نجيم أكثر من (٤٠) كتاباً في الفقه. انظر «الأعلام» (٣/٦٤).
- ولأحمد الحموي (٤٧) كتاباً في العقائد والتفسير والحديث والفقه والنحو والبلاغة وآداب البحث والتاريخ والتصوف والفروسية. انظر: مقدمة محقق رسالته «شفاء الغلة».
- وللحصكفي مؤلفات في التفسير والحديث والفقه والنحو، ذكرها المحبي في «خلاصة الأثر» (٤/٦٣)، ووصفه بأنه: «صاحب التصانيف الفائقة في الفقه وغيره».
- وللفتال الدمشقي - غير دلائل الأسرار - شرح لامية ابن الوردي، ورحلة إلى الديار الرومية ونظم. كما في ترجمته في «الأعلام» (٢/٣٢٢).
- ووصف المرادئي إبراهيم الحلبي بأنه «ذو التصانيف الباهرة» كما في «سلك الدرر» (١/٣٨). وذكر له مؤلفات في الفقه والسيرة والعروض والمعنى والوقف.
- وجعل البيطاز من مآثر الطحطاوي «حاشيته على الدر المختار»، كما في «حلية البشر» (١/٢٨٢)، وله غيرها كتابان آخران في الفقه أيضاً.
- ولابن عابدين مؤلفات كثيرة أغلبها في الفقه، وقد ذكرها ابنه في ترجمته لأبيه في =

ولو جئنا إلى العصر الأخير لوجدنا أن العلوم التراثية شهدت تطورات كبيرة جداً، وفيما يخص العلوم الستة المذكورة في المقالة أقول:

لقد أُعيدت صياغة علم الأصول، وعرّف التطبيقات القانونية.

وعرف علم النحو كثيراً من محاولات التقريب والتيسير، وعرضه عرضاً جديداً.

وعرفت البلاغة تطوراً ملحوظاً في نظرية التصوير الفني وغيرها

وعرف علم التفسير - فيما عرف - التفسير العلمي، ولا أقول الإعجاز.

وعرف علم الفقه تجديداً مهماً على يد أحمد إبراهيم بيك فقيه العصر ومجدّد ثوب الفقه في مصر والعالم الإسلامي، ومصطفى الزرقا فقيه العصر وشيخ الحقوقيين^(١).

= مقدمة كتابه «قرة عيون الأخيار» (٦/٦-٧)، وذكر منها رسالة في النفقات قال عنها: «لم يسبق لها نظير، اخترع لها ضابطاً جامعاً مانعاً». وحاشيته ردُّ المحتار مشهورة، ومنزلتها معروفة.

- ولطاهر الجزائري (٣٥) مؤلفاً في العقائد والتفسير وعلوم القرآن والتجويد وعلوم الحديث والسيرة والأصول وعلوم البلاغة واللغة العربية وآدابها والتعريب والحكمة الطبيعية والرياضيات والتاريخ. كما في ترجمته في صدر «توجيه النظر» (٢٨/١).

- ومؤلفات الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة ومحققاته تجاوزت الثمانين، وأغلبها في الحديث وعلومه، وشهرتها تغني عن ذكرها.

(١) صدر عنها عن دار القلم بدمشق كتابان بهذين العنوانين، الأول للدكتور محمد عثمان شبير، والثاني للدكتور عبد الناصر أبو البصل.

وعرف علمُ الحديث اهتماماتٍ مهمة منها الاهتمام بما يُدعى (الحديث الموضوعي) (١).

ويقودنا هذا إلى القول: إن كل العلوم تبقى ملفاتها مفتوحة، وهي قابلة للنظر والمراجعة (٢)، والتهذيب والتشذيب، والإصلاح والإيضاح، والتصحيح والتنقيح، والتعديل والتطوير (٣)، والزيادة والإبداع (٤)، وهذا ما فعله الأسلاف في تعاملهم مع مؤلفاتهم، ومع تراث من سبقهم (٥)، وهذا ما

(١) ويقول الشيخ شعيب الأرنؤوط: إن إنتاج علماء الأزهر في مئة السنة الأخيرة يعادل إنتاج علمائه في أربع مئة سنة سابقة.

(٢) ولا سيما ونحن نعيش عصر الحاسوب الذي أتاح لنا من المعلومات ما لم يتح لمن قبلنا، واختصر لنا من الأوقات ما يجعلنا نعيش أعماراً مضاعفة. والآن بات من السهل أن تستدرك معرفة قائل بيت من الشعر لم يعرفه أديب كبير كالأستاذ محمود شاكر، ومعرفة تخرج حديث غاب عن محدثٍ جليل كالأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، وليس في هذا تعامل عليهما أو انتقاص - حاشا - لقدرهما، وإنما لبيان ما يمكن أن يقدمه هذا الجهاز (حافظ العصر)، ورحم الله العلماء كم بحثوا وكم فتشوا وكم تعبوا.

(٣) على سبيل المثال: اكتشف مؤلف «ترتيب الأعلام على الأعوام» زهاء سبعين علماً ترجم لهم الزركلي مرتين، وظن الواحد منهم اثنين. وهذا ما تحقق منه، أما ما يحتمل التكرير فهو كثير. انظر مقدمة المؤلف (٥ / ١).

(٤) وقد عدّ الزركشي التأليف من فروض الكفاية، فقال في كتابه «المنثور» (٣ / ٣٥): «ومنه تصنيف كتب العلم لمن منحه الله تعالى فهماً وإطلاً، ولن تزال هذه الأمة مع قصر أعمارها في ازدياد وترق في المواهب، والعلم لا يحل كتمه، فلو تُرك التصنيف لُصِّح العلم على الناس، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾. ويقال: إن في التوراة: عِلْمٌ مَجَانًا كَمَا عَلَّمْتَ مَجَانًا».

(٥) انظر: الفهرست للنديم، والدر الثمين في أسماء المصنفين، وأسماء الكتب، وكشف الظنون، وإيضاح المكنون، وهدية العارفين، وتاريخ الأدب العربي، وغيرها من أمثالها. وهذا الموضوع جدير بالاهتمام والبحث.

ينبغي أن نفعله الآن ، وصدق أبو تمام إذ قال:

..... كم ترك الأول للآخر^(١)

وابن مالك إذ قال: «وإذا كانت العلوم منحاً إلهية، ومواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يُدخِر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين»^(٢).

وهذا الذي يتفق مع طبيعة العلوم والآداب وسائر الفنون، ويؤيده ويصدقه الواقع.

ولو رجعنا وأحصينا ما ذكّر في تراجم كثير من العلماء عن كتب لم يسبقوا إليها لدى المتقدمين والمتأخرين لتأكد لنا هذا تماماً.

وقول من قال: «إنما أفسد العلم كثرة التوليف» محمول على أن الناس اتكلوا عليها وتركوا الرحلة^(٣).

(١) انظر: ديوانه بشرح الشنتمري (٢/٣٦٧)، قصيدة: قل للأمر الأريحي الذي.

(٢) انظر مقدمة كتابه «تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد».

(٣) قال الشيخ محمد بن إبراهيم الأبي التلمساني: «إنما أفسد العلم كثرة التوليف، وإنما أذهب ببناء المدارس».

وعلّل هذا المقري الجدد بقوله: «وذلك أن التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير، وقد لا يحصل له من العلم إلا النزر اليسير، لأن عنايته على قدر مشقته في طلبه، ثم صار يشتري أكبر ديوان بأبخس ثمن، فلا يقع منه أكبر من موقع ما عوض عنه، فلم يزل الأمر كذلك حتى نسي الأول بالآخر، وأفضى الأمر إلى ما يسخر منه الساخر». نفع الطيب (٧/٢٥٨).

ويجب الاعترافُ أن تراثنا متفاوت القيمة، متغاير المستوى^(١)، فعلى حين نجد كتاباً يعيش ألف سنة، نجد آخر لا يعيش أكثر من عمر مؤلفه، أو أقل من ذلك، وهناك تكرار - وله أسبابه - فلا يُؤخذ التراث كله، ولا يترك كله.

وحين يُؤرَّخ لكل علم من العلوم تاريخاً معمقاً مدققاً، كاملاً شاملاً، عاماً تاماً، ستكون الحقيقة أجلى، والصورة أدق، ولا يمكن الحكم على العلوم بجملة أو كلمة أو جرة قلم.

ويتضح لنا أخيراً أن هذه المقولة لا تتحدث عن انتهاء وظيفة التراث، بالمعنى الذي يتردد اليوم، وهي غير مسؤولة عمَّن يحملها ذلك، وأن التراث - وهو أكثر وأشمل من العلوم الستة التي ذُكرت في المقولة - قادر على التجدد، وعلى تلبية حاجات الناس^(٢).



(١) وللعلماء جهود مقدرة فيما يمكن أن يطلق عليه: (علم جرح الكتب وتعديلها) وهو علم كبير يستحق أن تبذل فيه الجهود وتتعاقد الأيدي ليخرج إلى الوجود.
(٢) قال الجاحظ: « وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس وله مضرة شديدة وثمرة مرة، فمن أضر ذلك قولهم: لم يترك الأول للأخر شيئاً، فلو أن علماء كل عصر منذ جرت هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمَّن قبلهم لرأيت العلم مختلفاً ». انظر: دلائل الإعجاز ص ٢٢٥.

وقد أراد العلماء السابقون القيام بمشروعات علمية أو اقترحوها، ولم تتحقق إلى الآن، ومن ذلك مشروع السيوطي في تأليف كتاب في توافق السنة والقرآن (ينظر: قطف الأزهار ١/ ٩٨-٩٩)، ومشروع ابن الحنبلي في اختيار ألف حديث تبلغ مرتبة التعجيز عن الإتيان مثلها (ينظر: استخراج الجدل من القرآن ٣/ ٥٨).





النتائج

بعد هذه الجولة العلمية التراثية أخلص إلى النتائج الآتية:

١- ظهرت المقولة التي تتحدث عن النضج والاحتراق في النصف الثاني من القرن الثامن، ولا يُعرَفُ قائلها، ولا منزلته في العلم، ولكنها مصرية المنشأ، وقد ذكرها مؤلفون في مصر، وعنهم أخذها أهل الشام، ولم تتعد هذين القطرين، وبلغ عدد الذين ذكروها أو تكلموا عليها أربعة عشر مؤلفاً، وأولهم الزركشي، وهو مصدرها الأساسي. وقد ذكروها مؤيدين، ولم ينازع فيها سوى طاهر الجزائري. وهي تتحدث عن ستة علوم شرعية وعربية، ولا تتعرض لباقي العلوم والآداب والفنون.

٢- إن هذه المقولة من قبيل الملح التي تُستحسن في المحاضرات والمحاورات ولا يستقصى البحث فيها، أي لا ينظر إليها نظرة حدية جدية.

ويبدو أن العلماء فهموها على أنها كذلك، ولهذا لم تمنعهم من الاشتغال بأي علم من العلوم الستة التي ذكرتها، بل تركت هي الباب مفتوحاً في النوعين الأول والثاني أصلاً، وكان لها أثر إيجابي لدى عدد من العلماء، وما تزال.

ومما يؤيد كونها ملححة أنها لا تذكر سوى ستة علوم، ولا تتعرض لكثير من العلوم والفنون والآداب، ولعل قائلها اقتصر على العلوم الستة لأنها تقع في دائرة اهتمامه وتخصصه، - ولنا أن نستدل بذلك على هويته -.

٣- يتبين لنا من خلال استعراض أقوال العلماء أن النضج والاحترق مصطلحان، قصد بهما الدلالة على مراحل تاريخ العلم، وأن الاحترق كلمة تشخيص، وليست ذمًا، ولا يراد بها الغض والنيل، فهي ليست على ظاهرها، وإلا فالاحترق مفسد للأشياء كما قال الطحطاوي.

٤- الحكم على علم بالنضج، أو النضج والاحترق لا يلغي أبداً دراسته والإفادة منه، واستعماله وتطبيقه، وإنما قد يعني وصوله إلى مرحلة معينة من الكمال، أو الزيادة على الكمال، وهذا من وجهة نظر القائل، التي يمكن أن تخالفها وجهة نظر أخرى.

وعلى هذا لا يمكن لأحد أن يحتج بها على أنها اعتراف من أهل التراث باستنفاد أغراض تراثهم.

٥- إن العقل البشري - وهو هبة إلهية عظيمة - قادرٌ بما أودعه الله من طاقات، ومنحه من ملكات، وهياً له في كل زمان ومكان من وسائل وغايات، على الإبداع والتجديد.

وليس العقل المسلم بدعاً من ذلك، وما أنتجه خلال القرون حتى الزمن القريب أعظم شاهد على ذلك.



التوصيات

١- عدم الانشغال بالحدائثيين الذين يريدون إلغاء التراث، وتجنُّب الدخول معهم في معارك جانبية، فإن هذا سيشغلنا عن مهامنا وهي مهام كبيرة، وما زال أمامنا الكثير مما ينبغي أن يُعمل.

٢- أوصي أن يُهتم بمعهد المخطوطات العربية، وأن يركِّز المعهد المذكور على مهمته الأولى، وهي الاشتغال بالمخطوطات حصراً وتوصيفاً وتعريفياً، ورعاية وحماية، وتحقيقاً ونشراً.

٣- لدينا قضايا مهمة تستلزم عملاً جاداً دؤوباً طويلاً:

- منها: حصر المخطوطات مجهولة المؤلف في مكتبات العالم، ومحاوله الكشف عن مؤلفيها، وهذا - لو تمَّ - سيكون إنجازاً ضخماً في غاية الأهمية والفائدة للعلم وتاريخه، وللعلماء والباحثين والدارسين^(١).

(١) من الخسارة مثلاً أن لا نعرف مؤلَّف الكتاب المهم «روح الروح» الذي يضم (٣٦٠) باب، فيها (٢٧٩٠) قطعة شعرية ونثرية، منها (٢٠٧) بيت لأبي بكر الخوارزمي ليست في ديوانه كما قال محققه الأستاذ إبراهيم صالح!

- ومنها: حصر المؤلفات المنسوبة إلى غير مؤلفيها خطأ وعمداً، وإخراج ذلك في معجم شامل، والنسبة المزورة مشكلة تؤرّق المعنيين، وتسيء إلى التراث، وتربك الدارسين^(١).

- ومنها: إيلاء (فهارس المخطوطات) عناية خاصة، مراجعةً وتدقيقاً وتصحيحاً ونقداً، فإن الخطأ فيها يقود إلى أخطاء وإلى إحباطات، وخسارات.

- ومنها: الاهتمام بإصدار سلسلة جديدة تتناول حصر مؤلفات العلماء الكبار، كل على حدة، وبيان المخطوط والمطبوع والمفقود منها، وتحديث ما صدر من قبل كـ(مؤلفات ابن سينا) و(الغزالي) و(ابن الجوزي) وهكذا.

- ومنها: حصر الكتب التي طبعت ناقصة، والعمل على إخراجها كاملة بما اكتشف من نسخها، والبحث عن نسخ كاملة لسائرهما.

- ومنها: حصر الكتب التي طبعت عن نسخ مبعثرة الأوراق، وإعادة إخراجها مرتبة الأوراق بالإفادة من جهود النقاد والدارسين والنسخ الخطية المكتشفة.

- ومنها: حصر الكتب التي حذف منها شيء، أو أقحم فيها شيء، من النسخ والورّاقين والناشرين، وإعادة إخراجها متممةً منقحةً.

- ومنها: الاهتمام بالتراث الإسلامي المكتوب باللغات الأخرى

(١) اعتنيتُ بهذا منذ حين، ووضعت أكثر من عشرين وسيلة لاكتشاف المؤلف الحقيقي.

كالفارسية والتركية، والعمل على ترجمته - ومنه ما هو مترجم عنها - فإنه متمم للتراث العربي، وقد نجد فيه ما نفتقده عندنا.

- ومنها: التفكير بمشروع علمي معجمي كبير يستقصي كل ما ألف لدى المسلمين في العلوم والفنون والآداب.

- ومنها: العمل على إيجاد مرجعية كبرى تتبنى جمع التراث الإسلامي كله في مكان واحد، أصولاً ومصورات.

- ومنها: تفعيل دور الرقابة على التراث وما ينشر منه، والتعريف به، ورصده، والتاريخ له، ونقد ما يجب أن يُنقد، وإتمام ما به نقص، وهكذا.

- ومنها: العمل على تصوير كل أوراق المخطوطات المفككة المفرقة تصويراً رقمياً، وإتاحتها للباحثين للنظر فيها وفحصها، فمن الممكن إعادة تكوين كتب منها، والتعرف إلى بقايا كتب ضاعت.

- ومنها: العمل على حصر الكتب التي تفرقت أجزاء نسخها في المكتبات والبلدان.

- ومنها: العمل على حل مشكلة غياب تراجم لأعلام كبار، لهم في التراث اسم عريض، وأثر عظيم.

- ومنها: العمل على تأليف معجم في علم جرح الكتب وتعديلها، لإظهار جهود العلماء الرائعة في التعامل مع تراث من سبقهم، وصدقهم في حب العلم وخدمته والإخلاص له.

- ومنها: الاهتمام الجاد بدراسة أنماط التأليف لدى المسلمين، ومن ذلك المتون المنظومة والمنثورة، والشروح، والحواشي، والاختصار، وغير ذلك وهذه الأنماط لبَّت حاجات اجتماعية واقتصادية وثقافية، وكان لها حضور في عمليات التدريس والتثقيف، وقد يحكم الآن عليها حكماً ظالماً بجرة قلم!

- ومنها: تشجيع تحقيق التراث ونشره، فعلى مقدار ما نحقق ونشر ونقرأ نكتشف ذاتنا وتاريخنا، ونفهمها فهماً أفضل، وندرسها دراسة أدق. وما يزال حجم المعلومات الغائبة عنا كبيراً جداً^(١).

ويا حبذا وضع خطط منهجية لهذا النشر، إما على المؤلفين، وإما على القرون، كأن يتبنى نشر أعمال عالم معين كاملة، وبعده يؤخذ غيره، أو يتبنى نشر ما وصل إلينا من مخطوطات حسب القرون.

ويمكن أن يتعاون معهد المخطوطات العربية في ذلك مع الجامعات ومراكز البحوث العربية والإسلامية وفق خطط يعدّها هو، ويسعى إليها، ويشجعها ويشير بها.

(١) ذكر ابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٣/ ٢٢١) أبياتاً للقاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي قال إنه وجدها له في عدة مواضع. ومع ذلك فإن سنوات من البحث في آلاف المصادر لم توصل إلى مصدر واحد سابق عليه إلى الآن!

وعلى الرغم من بحث الدكتور يوسف زيدان عمّن ذكر تفسير إسحاق بن إبراهيم البستي - الذي اكتشفه وكان يُعتقد أنه جزءٌ من صحيح مسلم - فإنه لم يجد مَنْ ذكره. انظر: «النسخ الألفية في مكتبة الإسكندرية» (ضمن المخطوطات الألفية ص ٣٤٣-٣٤٦). وحين طُبِع «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقن وجدناه ينقل عنه. انظر: «التوضيح» (٥/ ١٥٣) و (٢٢/ ١٧٠).



المصادر

- أحمد إبراهيم بيك فقيه العصر ومجدد ثوب الفقه في مصر لمحمد عثمان شبير، دار القلم، دمشق، ط ١ (١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م).
- استخراج الجدال من القرآن الكريم لناصح الدين ابن الحنبلي (ت: ٦٣٤ هـ)، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية، تصوير مكتبة طيبة بالرياض ودار الكلمة الطيبة بالقاهرة.
- الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي (ت: ٩١١ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الأشباه والنظائر لابن نجيم الحنفي المصري (ت: ٩٧٠ هـ) ضمن شرحه «غمز عيون البصائر».
- الأعلام للزركلي (ت: ١٣٩٦ هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٠ (١٩٩٢ م).
- إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (ت: ٦٤٦ هـ)، تصوير دار الفكر العربي في القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية في بيروت، ط ١ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م).

- البرهان في علوم القرآن للزركشي (ت: ٧٩٤ هـ)، تحقيق: يوسف المرعشلي وزميليه، دار المعرفة، بيروت، ط٢ (١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م).
- التحرير المختار لرد المحتار للرافعي (ت: ١٣٢٣ هـ)، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط١ (١٣٢٣ هـ).
- ترتيب الأعلام على الأعوام لزهير ظاظا، دار الأرقم، بيروت.
- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك (ت: ٦٧٢ هـ)، تحقيق: محمد كامل بركات، دار الكاتب العربي، القاهرة (١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م).
- تكملة حاشية ابن عابدين لمحمد علاء الدين ابن عابدين (ت: ١٣٠٦ هـ)، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢ (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م).
- توجيه النظر إلى أصول الأثر لطاهر الجزائري الدمشقي (ت: ١٣٣٨ هـ) اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة (ت: ١٤١٧ هـ)، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، ط١ (١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م).
- التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن (ت: ٨٠٤ هـ)، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، نشر وزارة الأوقاف القطرية، ط١ (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م).
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣ هـ)، تحقيق: محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢ (١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م).
- الحاجة إلى علم أصول التفسير لمولاي عمر بن حماد، منشور على شبكة المعلومات الدولية.

- حاشية ابن عابدين (ت: ١٢٥٢هـ): رد المحتار على الدر المختار، تحقيق: حسام الدين فرفور، دار الثقافة والتراث، دمشق، ط ١ (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
- حاشية الطحطاوي على الدر المختار، المكتبة العربية، باكستان .
- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر للبيطار (ت ١٣٣٥ هـ)، تحقيق: محمد بهجة البيطار، نشر مجمع اللغة العربية بدمشق (١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م).
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي (ت: ١١١١ هـ)، تصوير مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- الدر المختار شرح تنوير الأبصار للحصكفي (ت: ١٠٨٨ هـ) ضمن الحاشية: رد المحتار .
- دلائل الاعجاز للجرجاني (ت: ٤٧١ هـ)، تحقيق: التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت (١٤١٥هـ-١٩٩٥م).
- ديوان أبي تمام مع شرحه ليوسف بن سليمان الأعمش الشنتمري (ت: ٤٧٦ هـ)، تحقيق: إبراهيم نادن، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط (١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م).
- الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم لعبد الفتاح أبو غدة (ت: ١٤١٧ هـ)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ٢ (١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م).
- روح الروح لمؤلف مجهول من القرن الخامس الهجري، تحقيق: إبراهيم صالح، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط ١ (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م).

- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمراي (ت: ١٢٠٦ هـ)، تصوير دار البشائر الإسلامية ودار ابن حزم، بيروت، ط ٢ (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).
- شرح الأرجوزة المسماة عقود الجمان في علم المعاني والبيان للسيوطي (ت: ٩١١ هـ)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (١٣٣٨ هـ - ١٩٢٠ م).
- شفاء الغلة في تحقيق مسألة (أي) المجعولة صلة لأحمد الحموي (ت: ١٠٩٨ هـ)، تحقيق: حازم سعيد البياني، رسالة منشورة في مجلة آفاق الثقافة والتراث، الصادرة عن مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدي، السنة العاشرة، العدد (٣٩)، (رجب ١٤٢٣ هـ - أكتوبر ٢٠٠٢ م).
- الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث لحازم زكريا محيي الدين، دار القلم، دمشق، ط ١ (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).
- غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر لأحمد الحموي (ت: ١٠٩٨ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م).
- فهرس الفهارس والأثبات لعبد الحي الكتاني (ت: ١٣٨٢ هـ) بعناية: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢ (١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م)،
- فهرست مؤلفات السيوطي، ضمن ترجمته لتلميذه الداودي، نسخة خطية مصورة عن الأصل في برلين.
- قرة عيون الأخبار لتكملة رد المحتار = انظر تكملة حاشية ابن عابدين.
- قطف الأزهار في كشف الأسرار للسيوطي، تحقيق: أحمد محمد الحمادي، نشر وزارة الأوقاف القطرية، ط ١ (١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م).
- كشف الظنون للحاج خليفة (ت: ١٠٦٧ هـ)، تصوير مؤسسة التاريخ العربي.

- لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث لعبد الفتاح أبو غدة (ت: ١٤١٧ هـ)،
نشر دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ٤ (١٤١٧ هـ).
- مجلة الأحمديّة، الصادرة عن دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث،
دبي، العدد (٦)، (جمادى الأولى ١٤٢١ هـ - أغسطس ٢٠٠٠ م).
- مصطفى الزرقا فقيه العصر وشيخ الحقوقيين لعبد الناصر أبو البصل، دار القلم،
دمشق، ط ١ (١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م).
- من غرائب التأليف وفرائده في التراث العربي لعبد الرحمن بن حمد العكرش،
بحث منشور في مجلة عالم الكتب، المجلد (٢٢)، في العدد (٣-٤).
- المنشور في القواعد للزرکشي (ت: ٧٩٤ هـ)، تحقيق: تيسير فائق أحمد محمود، نشر
وزارة الأوقاف الكويتية.
- نزهة النواظر على الأشباه والنظائر لخير الدين الرملي (ت: ١٠٨١ هـ)، طبع في
المجلد الرابع من غمز عيون البصائر السابق الذكر.
- النسخ الألفية في مكتبة الإسكندرية ليوسف زيدان (ضمن كتاب: المخطوطات
الألفية)، مكتبة الإسكندرية (٢٠٠٦ م).
- نفع الطيب للمقري (ت: ١٤٠١ هـ)، بعناية: مريم قاسم طويل، ويوسف علي
طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م).
- هدية العارفين للبغدادي (ت: ١٣٣٩ هـ)، تصوير: مؤسسة التاريخ العربي.
- وفيات الأعيان لابن خلكان (ت: ٦٨١ هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر،
بيروت.



مُحتويات الكتاب

ص	الموضوع
٥	- افتتاحية
٧	- المقدمة
٩	- المطلب الأول: قائل هذه المقولة، وأول مَنْ ذكرها، والناقلون عنه
١١	- المطلب الثاني: سبب إيراد هؤلاء العلماء لها
١٥	- المطلب الثالث: معناها وتعليلها ومناقشتها
٢٥	- المطلب الرابع: مدى انطباقها على الواقع وأثرها
٢٩	- المطلب الخامس: خلاصة وتعليق
٣٧	- النتائج
٣٩	- التوصيات
٤٣	- المصادر
٤٨	- محتويات الكتاب

